

فصل

وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدو، وقتل شاوراً وولي الوزارة مكانه، ثم مات فوليه صلاح الدين، وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد، فجمعوا وحشدوا وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناها فمن يردنا، ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية، وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده حافظاً لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها معقل، ولا لأهلها منا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام، فتوجهوا إليها سائرين ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من أعداء شاور، وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة، واسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم على ما سبق ذكره، وتحكموا تحكماً كبيراً، فطمعوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مرى، ولم يكن ملك الفرنج مذخرجوا إلى الشام مثله شجاعة و مكرأ ودهاء يستدعونه لتملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها، والإستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي أن لانقصدها فإنها طعمة لنا، وأمواها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعمامة أهل بلاده وفلاحيه لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج

وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لا مانع لها ولا حافظ وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحيثئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد، وانكشف لهم أمرها فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلييس ونازلوها وحصروها فملكوها قهراً ونهبوها، وسبوا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بلييس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلييس ملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً، وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً عليها من الفرنج. فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر، ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية فشرع في تمحل الحيل وأرسل إلى ملك الأفرنج يذكر له مودته ومحبتة القديمة وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح وأخذ مال لثلاثين ألف دينار، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض، ويؤخر البعض، واستقرت القاعدة على ذلك، ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين، وقالوا نأخذ المال نقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لانبالي معها بنور الدين ولا غيره (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)^(١٠٢) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً، وكان خليفة مصر العاضد

عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث البلاد من مصر، وأن يكون أسد الدين شريكوه مقيماً عنده في عسكره، واقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين، هذا قول ابن الأثير.

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً وإرغاماً له واطمئناً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخاً مستنقراً، وبيانات الإسلام من الكفر مخبراً، ويقول إن لم تبادر ذهبت البلاد، وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب مجزوزة، أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عراهم من بلية الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجابين سراعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيراً، وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم في كل حين مالاً، ويطلب منهم إمهالاً، ومازال يعطيهم ويستميلهم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله.

فصل فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين ليستدعيه من حمص، وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاضطراب لأنه كان قد

طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفر، فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاعل به وسره، وأمره بالتجهز إلى مصر، والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختر من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، فكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء والمماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش، وناصر الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنزيين من الله تعالى النصر، وذلك منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشرات، فوصل المبشر برجيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان يعني صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) (١٠٣)

وقال ابن الأثير: أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه.

حكى لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستحضرين أحضرتني وأعلمني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه تأمره بالحضور وتحته أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، قال: ففعلت، فلما فارقتنا حلب على ميل منها لقيناه قادماً في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهز للمسير. فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال: تجهز يا يوسف. قال: فكأنها ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين لا بد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقبله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم، ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة، وقلة الدواب، وما احتاج إليه فأعطاني ما تجهزت به، وكأننا أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحرصة أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلاً

إذا ما يوسف بالمال جادا

فتى للدين لم يبرح صلاحاً

وللاعداء لم يبرح فساداً

لئن أعطاه نور الدين حصنا
فإن الله يعطيه البلادا
إلى كم ذا التواني في دمشق
وقد جاءكم مصر تهادي
عروس بعلها أسد هزير
يصيد المعتدين ولن يصادا
ألاينا معشر الأجناسيروا
وراء لوائه تلقوا رشا
فما كل أمرىء صلى مع النا
س مأموما كمن صلى فرادا

فلما سار صلاح الدين إلى مصر، عبر العرقله على داره فوجدها مغلقة
فقال:

عبرت على دار الصلاح وقد دخلت
من القمر الوضاح والمنهل العذب
فوالله لولا سرعة مثل عزمه
لغرقها طرفي وأحرقها قلبي

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصوفية بحارة قطامش،
جوار قيسارية القصاع، وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله،
فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج، وتملك صلاح الدين على
ماسياتي، وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ في صلاح الدين من قصيدة
أولها:

(سلم على مصر لاربع بندي سلم)

يقول فيها:
الناصر الملك الموفى بذمته
ومن ندى كفه يغني عن القديم

ومن إذا جرد البيض الصوارم في الـ
— هيجاء أغمدها في البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة في أنـ
تزعاه بشبا الهندية الخدم
ورد طاغية الأفرنج يحسب ما
رجاه من ملك مصر كان في الحلم
ولى وراحته صفر وقد ملئت
بعد الطاعة من يأس ومن ندم
يصعدون على ما فاتهم نفسا
لولا فح البحر أضحى الموج كالحمم
وفي السلامة لولا جهلهم ظفر
لمن أراد نزال الأسد في الأجم
وهم أسود الثرى لكن أذلهم
ملك لديه الأسود الغلب كالغنم

وله من قصيدة أخرى:
أقمت عمود الدين حين أماله
لطاغي الفرنج الغتم طاغي بني سعد
وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم
خزايا عليهم خيبة الذل والردّ
أفدت بما قدمت ملكا مخلدا
وذكرامدى الأيام يقرن بالحمد
وذكرك في الأفاق يسري كأنه الـ
— صباح له نشر الألوّة والنـ

ولأبى الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مري:
ولكم أشمت الروم أشأم بارق
أضحى مياه نفوسها من قطره
وافاك بحر دروعها عن مده
ومضى وقد حكمت ظباك بجزره

ولقيت مرّياً وطعم حياته
حلّوفبذلّه القتال بمرّه .
فاعقد إليه الرأي في عذب القنا
واحلل بها عجلا معاقد كره
واطرده من وكر الشأم فإنّه
قد طار منك بخافق من ذعره

فصل في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاخذ خليفة مصر فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاخذ معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يباطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين، ويسير معه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غروراً)^(١٠٤) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن أسد الدين، فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً، فقال : صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحيثئذ لو مشى العاخذ إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد

الدين بذلك فنهاهم فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به، فلقه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه، وأخذ أسيراً، ولم يمكنهم قتله بغير إذن أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدوها الناس ينهبونها، ففترقوا عنه، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شدّاد: أقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بهال في مقابلة ما خسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقت مغاليب الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد، وأن ترددهم إليها في كل وقت لا يفيد، وأن شاوراً يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به، وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلا السلطان نفسه، يعنى صلاح الدين، وذلك أنه لما سار إليهم، تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ بتلايبه وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففرّوا ونهبهم العسكر، وقبض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة، وفي

الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لا بد من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبتة وأنفذوا رأسه إليهم.

قال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخلع عليه، ولقى الإحسان، وتردد شاور إلى أسد الدين وتودد، وتجدد بينهما من الوداد ماتأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة، فقال صلاح الدين: هذا أمر يطول، ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لاسيما إذا راوغ وغادر، فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك من عندي من الناس، فلم يكثر بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النوريه، وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته وقبضه وأثبتته، ووكل به في خيمة ضربها له، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ويعجل من العمر رأسه، وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا أن يرجعوا إلا بنجح السول، فحم حمامه، وحمل إلى القصر هامه.

قلت: وبلغني أن الذي حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما، فأجابه ووافقهما في ذلك جرديك، وكان ذلك عن أمر قد تقرّر فحركوا خيلهم، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة، وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة

له شيركوه العاضدي وزير

كان ابن شاذي والصلاح وسيفه
علي لـديده شبر وشبير
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه
وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل
على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربية قبره
ولا زال فيها ما منكرو نكير

وقال أيضاً:

إن أمير المؤمنين _____ نذي
مصر حماه وعليّ أب _____ وه
نص على شاور فرعونها
ونص موساه على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليميني في كتاب الوزراء المصرية الذي صنفه حال شاور في وزارته الأولى، ثم قال: وزارة شاور الثانية: فيها تكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نفحاته، وغضبه الدهر وعضه وأوجعه الثكل وأمضه، وبان غمره وثماده وجمره ورماده، ولم يجف من الانكاء لبدته، ولا صفا من الاقضاء وردده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحة، وسلمت له الهموم عوضاً عن الراحة، وفي أول ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بلبليس، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة، فكسر الناس يوم التاج، وأسر أخوه صبح، وأصيب على باب القنطرة بحجر كاد يموت منه، وتعقب ذلك بنقل القتال على القاهرة حتى دخلت من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج وعمل البرج وحصار بلبليس، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاق لواته ومن ضامها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم، ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر، وفي

أثناء هذه المدّة قبضه على الأثير ابن جلب راغب وقتله ، وأسر معالي بن فريج ثم قتله، واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى أطفيح بأمر النوائب الكبرى، ووافق مجيء الغزّ قدوم الفرنج ناصرين للدولة، وتوجهوا من مصر في البرّ الشرقي تابعين للغز، ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الآمال وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ، فتجهز الكامل للمسير صحبة الأفرنج.

حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قال: أنا أذكر وقد حلونا في خيمة، وليس معنا أحد إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغرب إلى سليم وما وراءها ، وقال شاور: لكن لأبرح أقاتل بمن صفا معي حتى أموت، فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القوي وصنيعة الملك جوهر وعز، وقد التزموا المال، وتفرّج على هذا الأصل مقام الغزّ بالجيزة ونوبة البابين، وحصار الاسكندرية، وانصراف الغزّ راجعين والفرنج بعدهم، فما هو إلاّ أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته معه وعفا، وإذا الأيام لا تخطب إلاّ زواله وفوته ، ولا تريد إلاّ إنتقاله وموته، فكان من قدوم الفرنج إلى بلييس ، وقتل من فيها، وأسرههم بأسرههم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين ابن القسيم، وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين، ومن معه من المسلمين، الذين قلت فيهم ، وقد ربط الأفرنج بالطريق عليهم:

أخذتم على الأفرنج كل ثنية
وقلتم لأيدي الخيل مرّي على مرّي

لئن نصبوا في البرّ جسراً فلإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت: وهذان البيتان من قصيدة ستأتي، ومرّي هو اسم ملك الأفرنج.

قال عمارة: ففضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له، قال: ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته تسعة أشهر مدّة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغز والأفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها، ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيف من شر شاور ومكره، لما عرف من غدره وختره، واتضح الأمر في ذلك واستبان، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان، فجاءه قاصداً لعيادته جارياً في خدمته على عادته، فوثب جرديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شره وما شاوراً، وكان ذلك برأي صلاح الدين فإنه أوّل من تولى القبض عليه، ومدّ يده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، وملك وخلع عليه الخلع وحنك، واستولى أصحابه على البلاد، وجرت أموره على السداد، وظهر منه جميل السيرة، وظهرت كلمة السنة.

فصل في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتب وزيراً ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقر في الأمر، ولم يبق له فيه منازع ولا مناو، وولى الأعمال من يثق إليه، واستبد بالولاية فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصالح الدين مباشر للأمور مقرراً لها وزمام الأمر والنهي مفوض إليه لمكان كفايته ودرأيته، وحسن تأتبه وسياسته.

قال العماد: وكتب لأسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطي والنشر، كتب العاضد في طرته بخطه، ولاشك أنه باملاء كتابه: هذا عهد لا عهد لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مرشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك إلى بنوة النبوة، واتخذ للفوز سبيلاً: (و لا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كهيلاً) (١٠٥).

نسخة المنشور

من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد

الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضد، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليمًا .

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتأخرين، الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «بعثت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً».

ولما استقل أسد الدين بالوزارة، طلب من القصر كاتب إنشاء فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم ابن البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالاسكندرية على باب السدرة، ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه، وزاحم به كتاب القصر فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتباً أرسل إليه، وظنّ رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا ، فكان من أمره ما كان واستمرّ في الدولة ولم يزد في كل يوم الا تقدماً بصدقه ودينه، وحسن رأيه رحمه الله .

وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنته لأسد الدين أولها.

بالجد أدركت ما أدركت لا للعب
كم راحة جنيت من دوحه التعب

ياشركوه بن شاذي الملك دعوة من
نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا ببركضهم
من المدى في العلى ما حزت بالخب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصر وأرجو أن تصير بها
ميسرا فتح بيت القدس عن كتب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من
فتح البلاد فبادر نحوها ووثب
أنت الذي هو فرد من بسالته
والدين من عزمه في جحفل لجب
في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجا
والقلب في شجن والنفس في شجب
زارت بني الأصفر البيض التي لقيت
حمر المنايا بها مرفوعة الحجب
وإنها تقدم من خلفها أسد
أرى سلامتها من أعجب العجب
لقد رفعتنا إلى الرحمن أيدينا
في شكرنا ما به الإسلام منك جبي
شكا إليك ينو الإسلام يتمهم
فقمتم فيهم مقام الوالد الحذب
في كل دار من الأفرنج نادبة
بأدهام فقد باتوا على ندب
من شر شاورا انقذت العباد فكم
وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذي أطبع الأفرنج في بلد الـ
إسلام حتى سعو للقصد والطلب

وإن ذلك عند الله محتسب
في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
أذله الملك المنصور منتصرا
لمادعا الشرك هذاقدا تعززي
وما غضبت لدين الله منتميا
إلا لنيل رضى الرحمن بالغضب
وأنت من وقعت في الكفر هييته
وفي ذويه وقوع النار في الحطب
وحين سرت إلى الكفار فانهزموا
نصرت نصر رسول الله بالرعب
يا محيي الأمة الهادي بدعوته
للرشد كل غوي منهم وغبي
لما سعت لوجه الله مرتقبا
ثوابه نلت عفو أكل مرتقبا
أعدت نقمة مصر نعمة فعدت
تقول كم نكت الله في النكب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها
عدلا وكننت لوزر غير مرتكب
رد الخليفة عباسية ودع الـ
سـدعي فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها
فالخزم عندي قطع الرأس كالذنب

وقال العماد في الخريدة: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى
الملك العادل نور الدين قدس الله روحه أهل دمشق من المطالبة
بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه
لما سمحت لأهل الشام بالخشب
عوضت مصر بما فيها من النشب

وإن بذلت لفتح القدس محتسبا
لأجر جوزيت أجر غير محتسب
والأجر في ذلك عند الله مرتقب
فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه
خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد
أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممثلا
لما تريد فإدر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمته
حتى ينال بها العالي من الرتب
فالجدّ والجدّ مقرونان في قرن
والحزم في العزم والإدراك بالطلب
فطهر المسجد الأقصى وحوزته
من النجاسات والأشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا
وفي القيامة تلقى خير منقلب (١٠٦)